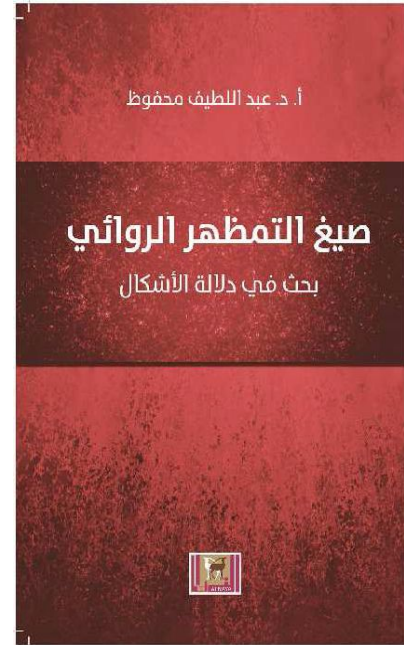


كتاب صيغ التمثيل الروائي للقائد عبد اللطيف محفوظ

تندرج كتابات الناقد والباحث عبد اللطيف محفوظ ضمن الدراسات التي تحمل مشروعا نقديا واضحا من حيث المرامي والأبعاد، ودقيقا من حيث التصورات والمناهج. تظهر استراتيجية مشروعه في خلق الأوصال بين البويطيقا الكلاسيكية والسرديات والسميائيات، لذلك استطاع إلى جانب نقاد آخرين (سعيد يقطين، سعيد بنكراد، محمد مفتاح، محمد العمري، عبد الفتاح كليطو) أن يرسم ملامحه الخاص ذا المنهج السيميائي السردية محاولا فتح السرديات العربية على احتمالات جديدة تبحث في تشكّل النصّ الروائي العربي لغة وبنية للكشف عن سماته الخطابية ورؤاه الدلالية. ويندرج كتابه صيغ التمثيل الروائي –



بحث في دلالة الأشكال-¹ ضمن هذا السياق إذ خصصه لمسعى يهتم بدراسة المادة اللغوية للحكاية من خلال مقارنة "التمثيل في ذاته، وقد خضع ليس فقط لمقصدات الكاتب المرتبطة ببناء الدلالة بدءا من الفكرة إلى تجسيدها في حكاية، بل أيضا لقوانين وضوابط الجنس الأدبي الذي ينتهي إليه، لكي تكشف النماذج المتميزة التي يخلقها النص في مسار تطور جنسه الأدبي"²، واعتمد في مقارنته لنماذج العمل الروائي على ركيزتين: تتعلق الأولى بالمفهوم الإجرائي المستخدم، إذ اختار مفهوم التمثيل كبديل لمفهوم الخطاب عند جنيت، ويحدده في كونه: "يهم تحريك الحكاية، وإخضاعها لقيود جنس أدبي ما، كما يعطيها تميزا داخل هذا الجنس بفضل النماذج

¹ - عبد اللطيف محفوظ، صيغ التمثيل الروائي، بحث في دلالة الأشكال، مختبر السرديات، كلية الآداب بنمسك، الدار البيضاء، ط1، 2011.

² - صيغ التمثيل الروائي، (ص:11/12).

المستثمرة في النص¹، وتتأسس الثانية على العينة التي اتخذها للدراسة والتحليل، رواية: "البحث عن وليد مسعود"² إذ سيحاول من خلال هذه المادة الحكائية أن يتجاوز دراسة البنيات العميقة للرواية التي تكتفي بالبحث عن المادة الماوراء - لغوية، لمهتم بدراسة التشكل اللغوي بمختلف دلالاته ورموزه الاجتماعية والفكرية والإيديولوجية.

ا. تمظهر الخطاب الروائي: من الصيغة إلى نماذج الخطاب الروائي:

لقد أسهم تفحص الناقد لأشكال التمظهر في رواية البحث عن وليد مسعود في طرح ثلاثة تمظهرات ثابتة تشكل جوهر العمل الحكائي، ويجملها في النمذجة السردية، والنمذجة الزمنية، والنمذجة الفضائية، وحازت النمذجة السردية على حيز كبير من صفحات الكتاب لما للسرد- كمقولة أساسية- من دور في معرفة الطريقة التي تعرض بها المادة الحكائية.

1. النمذجة السردية: يتم فحص البنيات السردية في الرواية من خلال أربع مقولات سردية:

❖ الحدث: تبنى الرواية على مسارين: مسار حياة وليد، ومسار البحث عن وليد، تجمع بينهما سلسلة من الأحداث ذات بناء يقوم على السببية المنطقية في توالد المحفزات والإنجازات الفعلية تقتحمها استطرادات ترتبط بسببية ضمنية مع الحدث المركزي، وتتأسس العلاقات بين الأحداث المركزية والأحداث المستطردة على معيارين هما: التشابه والتذكر.

❖ التمظهر السردية: يتم الكشف عن هذه المقولة بواسطة مفهوم الصيغة الذي يسمح بمعرفة كيفية تقديم المادة الحكائية في قالب سردي يركز أساساً على تتبع كيفية سرد الأحداث التي تحمل في طياتها قصة أفعال. لهذا يهتم الناقد بمختلف تجليات الخطاب السردية عبر الوقوف على خصائص الخطاب المسرود، والخطاب غير المباشر وغير المباشر الحر والخطاب المباشر، كل صنف منها يؤدي وظيفة دلالية لا يؤديها الصنف الآخر، فالمسرود يسهم في انكشاف الحقيقة والبحث عنها داخل المسار الحكائي، والخطاب غير المباشر بنوعيه يسهم في تعدد الأصوات التي تغني الدلالة وتبين الأوضاع الاجتماعية والثقافية للمتكلمين، ويرتبط الخطاب المباشر بالسياق السردية الذي يدل على الانفعالات. وتبرز هذه الأصناف بمختلف صيغها ووظائفها هيمنة على حكي الأقوال على حكي الأفعال داخل العمل الروائي "البحث عن وليد مسعود".

¹ - نفسه، (ص:13).

² - جبرا إبراهيم جبرا، البحث عن وليد مسعود، دار الآداب، بيروت، ط:2، 1981.

إلى جانب السرد تحضر صيغتي الحوار والوصف إذ يتشكل الحوار من ثلاثة أنماط: الحوار الأناكريزا، والحوار السينكريزا والحوار في علاقته بالسياق السردى، ويرى الناقد في أن الحوار داخل الرواية لا يعدو أن يكون: "مجرد محاولة لإعادة إنتاج الحوارات"¹ لذلك يبرز مكان من الضعف في استخدام الحوار لدى جبرا إبراهيم جبرا في كون معظم المتكلمين في الرواية لهم لغة متقاربة لا ترقى إلى التعدد اللغوي الغني دلاليا.

أما الوصف فيعالجه الناقد من جهتين: مورفولوجيا، عبر دراسة النعوت والأوصاف التي تؤثت الحركة البصرية، وبلاغيا، عبر اقتراب الوصف من جاذبية الصورة بتوظيفه التشبيهات والاستعارات. ويخلص في دراسته لمكوني الحوار والوصف أن السرد يتحكم فهما، ويخضعهما لغاياته الخاصة في تعزيز الدلالة وغناها.

❖ المنظور السردى: يأتي اهتمام الناقد بالمنظور السردى لما تعرفه الرواية من هيمنة نص الكلام على نص الأفعال، وسيادة السرد بضمير المتكلم، مما جعله يوزع هذا المستوى إلى محطات تحليلية تقف على محددات العلاقة بين الخطاب ومساري الكتابة والقراءة، وأيضا علاقة السارد بالمسرود له. وتتجلى هذه المحطات في التركيز على الكاتب الضمني، والحاكي الخارجى، والسارد الداخلى، والمسرود له. مع إبراز ما أسهمت به هذه الإوالات السردية في هيمنة مظاهر الوجود العلني للكاتب الضمني في الرواية، وتعدد زوايا النظر لدى الحاكي الخارجى، ثم إبراز دور السارد الداخلى في خلق جمالية التنضيد في العمل الروائى، وهيمنة المسرود له الداخلى الذي يعلم التفاصيل الدقيقة المتعلقة بالرواية مشفوعة بتبريرات منطقية مع حضور المسرود له الخارجى الذي تتنوع وضعياته بتنوع تيمات السرد.

❖ التبئير: يقارب الباحث هذا المكون من خلال زاويتين: تعدد الأصوات، والتعدد اللغوي، يرى في الأول أنه يبنى في الرواية على ازدواجية الصوت "فسواء أكان الصوت الثانى باطنيا أو غيريا فإنه يدخل في بنية نفس الخطاب، ليخلق داخله نوعا من الحوارية التي تتراوح بين التناقض حين يكون الصوت الثانى باطنيا متماثلا مع صوت الآخر المعارض، وبين الاتفاق النسبي الذي يقلل من درجة الحوارية، حين يكون الصوت الثانى غيريا محددا ولكنه مندرج ضمن كلمة الذات المتلفظة وكأنه كلامها هي"². يعقب الناقد على سمات التعدد الصوتي بالغياب الفعلي لأصوات تنتهي لطبقات اجتماعية متباينة مما يجعل الرواية تتمحور وجهات نظرها حول فرد بعينه.

¹ - صيغ التمثيل الروائى، (ص:31).

² - نفسه، (ص:71).

ويميز الناقد داخل أنماط التعدد اللغوي بين نمطين:

أ. النمط التعاقبي الخارجي: يعني به "كل ما يدركه القارئ ويتعرف عليه بوصفه نصا ينتمي إلى جنس أدبي يمكن العودة إليه والتثبيت منه خارج النص"¹، ويفهم من هذا القول بأن القارئ عليه تتبع كل النصوص الحاضرة والمبثوثة داخل العمل الروائي، و يمكن تحديدها في الأجناس الموازية للأدب، والنصوص الميثاخرائية، والنصوص المستشهد بها، والنصوص الخلفية، والتناص النمذجي الشكلي والدلالي.

ب. النمط التزامني الداخلي: يتحدد من خلال سمات التعدد اللغوي الذي ينجم عن تعدد المتكلمين، وتصبح الرواية حاملة لمختلف اللغات الاجتماعية والمهنية والسياسية والفلسفية التي يعرفها المرجع الواقعي. وقد حرصت رواية جبرا ابراهيم جبرا أن تستثمر التعدد اللغوي وإن حققته داخل نفس اللغة المركز: لغة الثقافة بمختلف تلاوينها، اللغة الماركسية، ولغة التحليل النفسي، ولغة التحليل الاجتماعي، ولغة التكنولوجيا..

2. النمذجة الزمنية: صحيح أن مقولة الزمن كتجل سردي لم تحظى بالاهتمام لدى الدارسين العرب إلا أن الناقد استطاع ان يبرز خصائص تمظهر الزمن في رواية "البحث عن وليد مسعود" وإن لم يخلو الأمر من صعوبات تتجلى في كيفية ربط الصلة بين زمن التلفظ (الخطاب) وزمن الملفوظ (الحكاية) من جهة، وبين الزمن المنطقي في علاقته الداخلية (النص) والخارجية (المرجع). الشيء الذي دفع به إلى مقارنة النمذجة الزمنية عبر محددات ثلاثة، نظهرها على النحو الآتي:

✓ إبراز خصائص التمظهر الزمني داخل زمن الحكاية بمراعاة ترتيب الفصول والعلاقات فيما بينها حكائيا ومنطقيا.

✓ رصد نسق الخطاب الزمني الذي يعرف سيادة تقنيات الكتابة المحفزة على تشتيت الزمن بفعل تدخل الذاكرة المتجولة التي تستعين بالحكي بضمير المتكلم الذي يسمح بالاتجاه نحو الماضي انطلاقا من الحاضر، ويتأسس نسق الخطاب الزمني على أنظمة أخرى منها: السرعة بمختلف تقنياتها من قفز، ووصف، وإيجاز، وإضمار.. والدبدبة، والحكي التكراري، والحكي المستعاد، والحكي الموحد أو الانفرادي.

¹ - نفسه، (ص:80).

✓ مقارنة علاقة المتكلمين بالزمن سواء الزمن العام الذي يهتم الشخصيات عموماً، أو الزمن الخاص الذي يرتبط بكل شخصية على حدة داخل العمل الروائي، واستعان الناقد لدراسة هذه العلاقات بمفهومين هما الزمن الآن، والزمن الفيزيقي بالمعنى الباشلاري، إذ مكنه من تحديد مستويات ثلاثة للمقارنة: العمق والامتلاء، المسافة والترسب، ثم استخلاص وظيفة الزمن الماضي ودوره في الإيهام بالحاضر..

3. النمذجة الفضائية: لقد ركز الناقد في دراسته للفضاء سردياً على حضور مقولتي الزمن والوصف إذ لا يمكن مقارنة الفضاء دونهما، وغيب دراسة الفضاء النصي والطباعي إذ اعتبره متغيراً لا يمكن أن يستقر على ثوابت خاصة بعمل روائي متفرد. وراعى في مقارنة الفضاء الخطابي ثلاثة محاور:

✓ فضاء التلفظ، وربطه بطبيعة الفضاءات داخل الرواية إذ تهيم الفضاءات الحميمية المنغلقة التي تبعث على التذكر والحلم، وتنفذ على زمن فيزيقي مغرق في الليل الذي يحيل على السكينة والهدوء.

✓ فضاء الملفوظ، تنتسب كل أمكنة الرواية إلى المرجع الواقعي، "ومن ثم فإن كل مكان إلا ويحيي تاريخين: تاريخ الحكاية وتاريخ المجتمع، سيما وأن وظائف هذه الأمكنة الروائية تنسجم (وتحاكي) وظائفها المرجعية"¹.

✓ علاقة الفضاء بالشخصيات، تتوزع أشكال هذه العلاقة بين الحب والحرمان، الضيق والخوف، وتغلب عليها العلاقة المادية الأمر الذي يجعل علاقة الشخصيات بفضاءاتها تخلو من الحميمية. كما تحتفي الرواية بالأشياء والموجودات مما يخلق داخل عوالم الكتابة تناظرات سيميولوجية ودلالية متنوعة، تقوم على الثنائيات الضدية تتضافر كي تنتج تناظرات إنسانية وقيمية.

هكذا استطاع الناقد عبد اللطيف محفوظ وصف تقنيات تمظهر الخطاب الروائي في رواية "البحث عن وليد مسعود" بغاية "إحداث توازن بين تفعيل المفهوم في حدوده الوصفية ... وتفعيله بوصفه آلية لتعيين المحتوى وذلك وفق شكل حضوره في نظرية معيارية تهتم بعالم المحتوى، وتقارب الخطابات في سياقاتها المختلفة"²

II. تمظهر الخطاب الروائي وإشكالية المصطلح:

لقد تعددت المقاربات الخطابية للنص السردى، منها ما تناولت جانبه الحكائي (المادة الحكائية) ومنها ما اهتم بتجليه النصي (البنية الخطابية)، واستعانت معظم هذه المقاربات بالسرديات كعلم يدرس إواليات الخطاب

¹ - نفسه، (ص:146).

² - نفسه، (ص:14).

الأدبي. ونعلم أن هذا العلم أسس له النقد الغربي الفرنسي والأنجلوساكسوني، وتضاربت فيه الآراء والتصورات حول المفاهيم والمصطلحات، نظرا لاختلاف المرجعيات والأسس النظرية. الشيء الذي أثاره الناقد عبد اللطيف محفوظ في كتابه في مفاصل متعددة أثناء عرضه للتأطير النظري المتعلق ببعض المفاهيم التي وظفها في التحليل، سواء تعلق الأمر بمفهوم الصيغة، أو التبئير، أو الكاتب الضمني والكاتب الافتراضي، أو الخطاب أو التظهير، أو الوقف، أو المشهد...

لقد أثار الناقد إشكالية اضطراب المصطلح النقدي حيث نجد مصطلحات متعددة تؤدي المعنى نفسه، مع اختلاف النقاد أنفسهم في فهم المراد من المصطلح النقدي الواحد مما يؤدي إلى تباين التصورات حوله، واختلاف نتائج الدراسات أيضا، فلا غرو من أن علم السرد علم حديث لا يمكن "عزل رصيده الاصطلاحي عما تراكم من رصيد إصطلاحي في مجال النقد الأدبي واللسانيات الاجتماعية، أو ما يسمى بعلم اللغة الاجتماعي، واللسانيات النفسية أو ما يسمى بعلم اللغة النفسي وعلم السمياء وغير ذلك من العلوم الحقول المعرفية ذات الصلة بتطور هذا العلم"¹. ولعل هذا ما دفع بالناقد إلى اختيار مسلكين أثناء مقارنته النقدية:

1. المسلك الأول: يقوم على مبدأ التكامل بجعل السرديات تنفتح على علم السيميائيات، والفلسفة الظاهرية وعلم الاجتماع الأدبي، يقول الناقد في خلاصة الكتاب: "لذلك لم نسع إلى تقديم مصطلحات ومفاهيم نظرية ما، والتدليل على نجاعتها باقتطاع ما يخدم ذلك من النص، بل على خلاف ذلك تماما، استعملنا المفاهيم المتاحة من قبل الخلفيات النظرية المنحاز إليها، لوصف أشكال التمثيل، واستعرنا، حين أحسنا بمحدودية مفاهيم نظرية جزئية ما، مفاهيم أخرى لا تتعارض معها إبستمولوجيا، كما هو الأمر بين مقترح جيرار جنيت النظري الذي يرى أن أدبية النص كامنة في صيغته، والتي تصبح موضوع الدراسة والتحليل، وبين المقترح الباختيني، الذي لا يختلف عن هذا الطرح إلا بتصوره لكون الصيغة حاملة لمضمون اجتماعي، وبين الوصف الشكلي للمكونات (الوصف والفضاء والزمن) ووصف شكل حضورها الدلالي بالاستناد إلى ما ينسجم مع شكل توظيف النص لها وتوصيفات الفلسفة الظاهرية لها"².

2. المسلك الثاني الذي يتأسس على مبدأ الملاءمة العلمية الذي مكن الناقد من أن يجتهد في طرح مفاهيم بديلة يراها تنسجم مع تصوره النظري، وتتماشى مع مقاصد دراسته، ونستدل بنموذج من باب التمثيل لا الحصر، حينما يقترح "تعويض مصطلح الوقف بمصطلح الموجز الوصفي، كما نقترح- انسجاما مع

¹ - حميد الحمداني، بنية النص السرد من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط:1، 1991، (ص:34)

² - صيغ التمثيل الروائي، (ص:163).

ما وضحناه بخصوص الحوار- تعويض مصطلح المشهد بالموجز المشهدي، ولكي نبتعد عن أي لبس سوف نعوض مصطلح الموجز أيضا بمصطلح الموجز المكثف¹.

يدعونا المسلك الثاني إلى طرح أمرين للنقاش:

- أ. كيف يمكن للناقد التوفيق بين تعالي المصطلح النقدي وتحيين تعريبه لحظة الاشتغال به داخل الممارسة النقدية العربية؟.
- ب. كيف يمكن للسرديات أن تستوي علمًا دون شرط توحيد القواعد والمصطلحات الضابطة لها؟.
- III. من التمظهر الروائي إلى النقد الروائي:

إن اختيار الباحث عبد اللطيف محفوظ دراسة أشكال التمظهر الروائي في رواية البحث عن وليد مسعود لم يكن اختيارًا جازافيًا بل حركته رهانات تتجاوز البعدين البنائي والدلالي، ويمكن أن نجمل هذه الرهانات في ثلاثة محاور:

1. إن تعدد الرؤى والخلفيات تغني درجة القراءة التي تزيد من غنى النصوص المقروءة عبر إضاءة الجوانب المظلمة التي تجهلها المناهج المعيارية، ومنها إغفال دراسة أشكال الخطاب الأدبي.
2. إن ارتكاز النقد على النظرية والمنهج يجنبان الناقد السقوط في الانطباعية والقراءات العاشقة التي يراها الناقد لا تحتفي بالنصوص بقدر ما تحتفي بأصحابها.
3. إن اعتماد المناهج والنظريات لا يعني تطبيقها الحرفي على النصوص بل وجب منح الأولوية للمادة المدروسة من أجل الحفاظ على خصوصياتها المعرفية والجمالية.

¹ - نفسه، (ص:119).

صدر حديثاً





مجموعة "سيما" للبحوث السيمائية
سيدي بلعباس-الجزائر

مدير المجلة

رئيس التحرير

د. عبد القادر فهمير شيباني

أسرة المجلة

عبد الحق بلعابد

هيثر سرحان

عايدة حوشي

أعضاء الهيئة الاستشارية

جاك فونتانيي

جون كلود كوكي

فرانسوا راستبي

توماس برودن

جون ماري كليكنبرغ

احمد حساني

عبد القادر فيدوج

الطائع الحداوي

عبد الحميد بورايو

محمد ناصر العجيبي

للمراسلات

Otaha80@gmail.com